♦ دراسات وأبحاث

التراث الكولونيالي الإسباني في المغرب

(البنايات المسرحية نموذجا)

د. جميل حمداوي

توطئة

إذا كانت إسبانيا معروفة لدى جميع المغاربة بأنها لم تخدم المغرب منذ استعمارها للمنطقة الشمالية سنة 1912م، حتى انسحابها منه سنة 1956م، مقارنة بفرنسا التي خدمت هذا البلد على مستوى البنية التحتية تخطيطا وتجهيزا وتدبيرا وتعميرا وتوسيعا. فإن هذا الحكم، في الواقع التاريخي، ليس صحيحا دائما؛ فلإسبانيا أيادي بيضاء على المغرب في بعض المجالات الثقافية، خاصة في مجالي المسرح والتشكيل، دون أن ننسى الميادين العلمية الأخرى، مثل: اللسانيات، والأدب، والتاريخ، وعلم الاجتماع، والأنتروبولوجيا، والتوثيق الببليوغرافي، والأرشفة المكتبية، وبناء المدارس والمعاهد التربوية لنشر اللغة الإسبانية والثقافة الإيبيرية.

ومن هنا، فقد خدمت إسبانيا المغرب خدمات جلى في مجال المسرح بناء وإبداعا وتنشيطا. وفي هذا السياق، يقول عبد السلام مصطفى المهماه: "من الملاحظ على الرغم مما عرفه المسرح الفرنسي من ازدهار في الفترة التي استعمر فيها المغرب، فإنه لم ينهج مثل الإسبان سياسة بناء المسارح، حيث لم يتعد بناؤه للمسرح البلدي بالبيضاء، ومسرح مدينة الجديدة، على الرغم من الرقعة الجغرافية الشاسعة التي كان يحتلها، كما أننا لا نعلم شيئا عن حركة المسرح الفرنسي بالمغرب، باستثناء الحادثة التاريخية التي رواها كل من عبد القادر السميحي ومحمد بن تاويت عن الفتاة

الفرنسية وفرقتها، مع المرحوم الزعيم علال الفاسي، وكذا الإشارة التي أوردها عبد الله الشتوكي في بحثه فيقول: "... فالمسرحيات التي كانت تعرض به [مسرح الحماية] كانت من الضعف، حتى إنها لا تقوى على الظهور بباريس والأقاليم الفرنسية، إلا أنها على الرغم من بساطة شأنها كانت ترضي الأجنبي الموجود بالمغرب، إذ توهمه بأنه يتسلى مثل برجوازي وطنه الأم".[1]

إذاً، ما أهم الخدمات الثقافية التي قدمتها إسبانيا إلى المغرب في مجال المسرح إبان فترة الحماية؟ وما البنايات المسرحية التي خلفتها إسبانيا في المغرب؟ هذا ما سنرصده جليا في هذه الورقة التي بين أيدينا.

تاريخ المنشآت المسرحية في شمـال المغـرب

من المعلوم، أن المغاربة قد عرفوا المسرح الإسباني منذ منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، بعد هزيمة المغرب في مدينة تطوان سنة 1859م، واحتلالها من قبل الإسبان سنة 1960م. ومن ثم، فقد شيدت إسبانيا مجموعة من المسارح بتطوان، وطنجة، وأصيلة، والقصر الكبير، والعرائش ... مقارنة بفرنسا التي لم تشيد، في منطقتها، سوى ثلاثة مسارح هي: الملهى الفرنساوي بمدينة فاس سنة 1917م، "ولكن الظاهر أن هذا المسرح لم يعمر طويلا. كما لم يكن له أثر يذكر على المسرح المغربي"[2]، والمسرح البلدي بمدينة الدار البيضاء الذي أسسه المارشال ليوطي سنة 1922م، ومسرح الجديدة الذي شيد سنة 1937م.

وللإشارة، فإن الملهى الفرنساوي كان يرتاده الأوروبيون والمسلمون على حد سواء، بغية رصد العروض المسرحية. وفي هذا، يقول أحد مراسلي جريدة (السعادة) المغربية: "شاهدنا الملهى الفرنساوي منذ افتتاحه تتقاطر عليه وفود السكان من المسلمين والأوروباويين، والكل يتباهى بين جدرانه، فكأنه سوق أدب، وكأنه معرض

---

(1)- مصطفى عبد السلام المهماه: *تاريخ مسرح الطفل في المغرب*، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، الطبعة الأولى سنة 1986م، ص:72-73.

(2) - د. رشيد بناني: *المسرح المغربي قبل الاستقلال*، دار الوطن للصحافة والطباعة والنشر، الرباط، المغرب، الطبعة الأولى سنة 2008م، الهامش، ص:115.

سرور، يتأثر المشاهد بأدوار التمثيل، وتتحرك إحساساته تبعا لحركات الممثلين، فمرة يشاهد الإنسان أمام الأدوار التمثيلية بحالة كئيبة يرثي لتعاسة الأشقياء، وآونة يترنح جدلا مع الفرحين، كل هذا والأنفس مرتاحة لما تتخلل تلك الأدوار التشخيصية من تشنيف الأسماع بنغمات الألحان الموسيقية المطربة، يشاهد الإنسان أمام مسرح التمثيل كأنه يعيش بين أهالي الأزمان الغابرة والأقطار البعيدة، ورغما عن ذلك، فهو يمكنه أن يستفيد بمعرفة أخلاق الأمم، وتنوير أفكاره باللطائف الأدبية والتاريخية وغيرها مما لا تنكر مواعظه."[3]

ويعني هذا أن إسبانيا كانت سباقة إلى ترويج المنتوج المسرحي في المغرب، خاصة في المنطقة الشمالية، منذ منتصف القرن التاسع عشر الميلادي. وفي هذا الصدد، يقول مصطفى عبد السلام المهماه في كتابه (*تاريخ مسرح الطفل في المغرب*): "خلال بحثنا وجدنا أنه لا يمكن القول بأن تاريخ العشرينيات بداية لمسرح الطفل المغربي بصفة خاصة، ولا بالنسبة للمسرح عامة، فقد ثبت بالوثائق أنه توجد مرحلة هامة مرت بأرض المغرب وشهدها، وسمع عنها المجتمع المغربي، إن لم يكن كله فجزؤه، نظرا لقلة وسائل التواصل وقتئذ، وإن كانت هذه المرحلة عرفت جمهورها الخاص من الجالية الإسبانية، مع ذلك سجل حضور بعض المغاربة."[4]

ويعني هذا أن بعض المواطنين المحليين في المنطقة الخليفية، سيما في تطوان، كانوا يحضرون احتفالات الإسبان، خاصة المسرحية منها، وهذا ما يؤكده الكاتب الإسباني (إدواردو مالدونادو): "...حتى المغاربة كانوا أحيانا يحضرون الحفلات الاستعراضية والمسرحية غير مذهولين من أي شيء، والقليلون هم الذين يعرفون الإسبانية، والموسيقى لا تقدر أن تنقل لهم الإحساسات التي تعودوا على تنغمها، علاوة على ثمن التذكرة الذي كان عائقا لهم للذهاب لرؤية ذلك الاحتفال الذي يلهي المسيحيين".[5]

(3) - المراسل: (الملهى الفرنساوي بفاس)، جريدة *السعادة*، المغرب، العدد، 1512، بتاريخ 18 يونيو 1917م.
(4) - مصطفى عبد السلام المهماه: *تاريخ مسرح الطفل في المغرب*، ص:65-66.
(5)- إدواردو مالدونادو: (مسرح تطوان)، *مجلة أفريقيا*، تطوان، المغرب، سنة 1953م، صص: 103-109.

وقد شهد هذا المسرح زيارة فرق مسرحية وشعرية واستعراضية منها: الفرقة الشعرية والدرامية لغارسيا دلگادو، والفرقة الرياضية البهلوانية للسيد ميزاندا، والفرقة الشعرية الثالثة للسيد بروتون، والفرقة الاستعراضية للسيد فرانسيسكو غارسيا غاستلدي التي قدمت عملها الفني في 13 فبراير 1861م.

أما عن مسرح الطفل، فقد عرض بهذا المسرح، سنة 1860م، مسرحية طفلية بعنوان (*الطفل المغربي / El Niño Moreto*) لفرقة (بوروتون) الإسبانية، وقد ركز العرض المسرحي على تصوير سذاجة الطفل المغربي وبداوته وتخلفه، من خلال رؤية عنصرية استعلائية واستعمارية.

وكانت هذه المسرحية هي الأولى والأخيرة لفترة طويلة من تاريخ المسرح الطفلي بالمغرب، حتى المرحلة الثانية من نهضة المسرح المغربي وهي فترة 1913م، حين نشوء مسرح سرڤانطس بطنجة، وتقديم مسرحية بعنوان (**أبناؤنا**) سنة 1923م[6].

هذا، وقد شيدت إسبانيا، في المنطقة الخليفية، مجموعة من المسارح الفنية منذ مطلع القرن العشرين الميلادي، في المدن التالية: تطوان، وطنجة، وأصيلة، والعرائش، والقصر الكبير، ومنطقة الريف.

ولا يعني هذا أن المغاربة لم يعرفوا البنايات المسرحية قبل فترة الحماية الأجنبية (1912-1956م)، بل عرف المسرح منذ الحاكم الأمازيغي يوبا الثاني الذي أنشأ عدة مسارح بالجزائر (شرشال)، والمغرب (وليلي، وليكسوس...)، وألف كتبا في المسرح والرقص والموسيقى، وأنشأ معاهد للتمثيل الدرامي، وتعليم فن المسرح. وفي هذا، يقول المؤرخ التونسي عثمان الكعاك: "منذ عشرين قرنا بنى يوبا الثاني بمدينة شرشال مسرحا كبيرا لا تزال آثاره إلى الآن، وجلبت إليه من المشرق الممثلين والممثلات والمخرجين والمزينين، وألحق به معهد لتعليم الفن التمثيلي، ومن حسن الحظ أن شرشال جاءت في منتصف الطريق بين تونس والمغرب، بحيث أشعت إشعاعا متساويا على القطرين الشقيقين، ولما جاء العبيديون وجدوا شمال أفريقيا في

---

(6)- مصطفى عبد السلام المهماه: نفسه، ص:70.

قبضة عبد الله المهدي، جلبوا التمثيل الديني المنتشر عند الشيعة بالفرس، والمعروفة بالتعزية، وإن نماذج من هذا التمثيل توجد لدى الجميع، ونستنتج من هذا في وضوح أن التمثيل بشمال أفريقيا لم يكن وليد القرن الماضي أو أوائل هذا القرن."(7)

ويتضح لنا، مما سبق قوله، بأن المسرح، في المغرب، ظاهرة أمازيغية قديمة، ولم يكن وليد هذا القرن مع مسارح إسبانيا أو مسارح فرنسا.

المســـرح بمدينـــة تطـــوان

شهدت مدينة تطوان، إبان الاحتلال الإسباني للمنطقة الشمالية، عدة مسارح استقطبت الجالية الإسبانية، سيما العسكرية منها، وكان تحضر إلى جانبها فئة قليلة من المغاربة الذين كانوا يستمتعون بالعروض المسرحية والفنية والموسيقية والاستعراضية. ومن أهم هذه المنشآت المسرحية نذكر ما يلي:

❶ مسرح إزابيل الثانية (1860م)

منذ أواخر منتصف القرن التاسع عشر، شيدت إسبانيا، بمدينة تطوان، مجموعة من المسارح، ومن أهمها: مسرح الملكة إزابيل الثانية الذي بني في أوائل شهر يوليوز سنة 1860م. وقد كان هذا المسرح تحفة فنية وجمالية ومعمارية . وقد بني هذا المسرح بمادة الخشب من قبل المهندس المعماري الكبير لوبي كامارا (Lopez Camara)، برئاسة العقيدين بيدرو دي إگريا (Pedro de Egria) ولي مونارا (Le Monara). وقد كان الهدف من تشييد هذا المسرح هو تسلية الجيش الإسباني والترفيه عنه دراميا وفكاهيا وغنائيا. بيد أن هذا المسرح لم يعمر طويلا، فقد أغلقت أبوابه، بعد سنتين من الاحتلال، في 05 ماي عام 1862م.

وللإشارة، فقد "استغرق البناء مدة شهر كان موقعه في بداية يسار شارع التجارة حاليا، حيث توجد إدارة الإقامة العامة، يعني أن ظهر المسرح يحاذي ساحة إسبانيا، وجناحه الأيسر يطل على شارع التجارة، وواجهته اليمنى مع ساحة نسبية

(7)- السائح التونسي: (العلاقات المسرحية بين المغرب وتونس)، حوار مع المؤرخ عثمان الكعاك، جريدة *العلم*، المغرب، العدد:97، بتاريخ 2 يناير 1947م.

واسعة تسمى ساحة المسرح التي توجد بها حدائق الإقامة العامة وضاحية سوق الخبز، وزنقة كانطبريا، تسمى اليوم زنقة فاس، وكان يحتوي على 16 شرفة و337 أريكة، و46 رواقا من الدرجة الأولى، و190 من الدرجة الثانية، و495 مقعدا للعموم، وأربعة أشخاص لكل شرفة، ويمكن أن يحتوي على 4282 متفرجا، وفي بحث آخر عن هذا المسرح 1300 متفرجا، وكانت له ثلاثة أبواب، وافتتح في أوائل يوليوز 1860، بفرقتين، الأولى للاستعراضات أو للاحتفالات، والثانية شعرية."[8]

بيد أن هذا المسرح كان موجها، بصفة خاصة، إلى الفئة العسكرية تسلية وترفيها. وفي هذا الإطار، يقول مصطفى المهماه: "أما الجمهور الذي كانت تهمه العروض المسرحية هم العسكريون، وعائلتهم للترفيه، وكانت الفرق الموسيقية العسكرية تجول في شوارع مدينة تطوان، لتأتي بالجمهور إلى المسرح، وتذكره بقرب ساعة البدء، (هذا التقليد شبيه بما كان يجري في المدن التي عرفت مسرح البساط، فاس ومراكش...)، وعند انتهاء العرض يكون الجنرال تورون (Toron) قد هيأ فرقا صغيرة من الجيش لتصحب المتفرجين المدنيين إلى مساكنهم، وهذا يعطي الصورة الواضحة للحالة التي كانت تعيش عليها الجالية الاستعمارية في تطوان . وانتهت عروضه في 13 فبراير من سنة 1861م.[9]"

وقد شهد هذا المسرح عدة عروض مسرحية إسبانية، وكانت تسبقها إعلانات واستدعاءات. وفي هذا النطاق، يقول مصطفى المهماه أيضا: "عند الانتهاء من تتميم بناء مسرح إزابيل الثانية بتطوان بدأت الفرق المسرحية تتوارد على تطوان، وكان أول عرض مسرحي في 17 غشت من السنة نفسها، وفي أول عدد من الجريدة المحلية **(صدى تطوان)** جاء: "...سيقام في هذه الليلة حفل استعراض مسرحي بمسرح إيزابيل الثانية من ثلاثة مشاهد (اللعب بالنار) لغرسيا دلگادو، وتأليف بربيرى".

يبدو أن أول عرض قدم من طرف فرقة دلگادو، ويبقى أن تطرح الأسئلة، بعد اتفاقية السلام، وخروج الإسبان من تطوان بعد سنة من احتلالها، ماذا كان مصير

(8)- مصطفى عبد السلام المهماه: نفسه، ص:68.

(9) - مصطفى عبد السلام المهماه: نفسه، ص:68-69.

المسرح الذي بني بها في سنة 1860م؟ وأظن بالتأكيد أن المؤرخين المغاربة لم يؤرخوه ضمن أخبار حرب تطوان؟"[10]

وقد سبب توقف مسرح إيزابيلا، في مدينة تطوان، حسرة وكآبة للجالية الإسبانية بالمدينة، حيث عاد العسكر إلى بلدهم يجرون ذيول الخيبة والحزن. وفي هذا، يقول الكاتب إدوارود مالدونادو في مقاله عن (*مسرح تطوان*): "مع نهاية القرن لا نستطيع سوى الشعور بحسرة كئيبة مصحوبة بابتسامة متسامحة، مع فضول منهوك للبدلات العسكرية، يا له من هراء متبجح من الافتخار الذي يكون عائدا مع الأشياء التي تكون عند الجنرال جهته اليمنى، يا له من حنين زواجي والجنرال المسند وفي يده مروحة زوجته، التي يرجعها نحوه بحنين، الكل مروا وذهبوا..."[11]

وهكذا، يتبين لنا بأن مسرح إزابيلا الثاني قد قام بدور هام في تنشيط الحركة الفنية والأدبية والمسرحية بمدينة تطوان، حيث ساهم، لأول مرة، في إطلاع ساكنة تطوان على الفن المسرحي إبداعا وتشخيصا واستعراضا.

❷ مســـرح إسبانيــول (1916م)

شيدت إسبانيا، في عهد فرانكو (Franco)، مسرح إسبانيول سنة 1916م، وما فتئت هذه المعلمة الفنية شاهدة على حضارة إسبانيا الزاهرة عمرانيا وثقافيا وفنيا إلى يومنا هذا. وقد قدمت، فوق خشبته الركحية، مجموعة من العروض المسرحية. وبعد الاستقلال، تحول هذا المسرح إلى قاعة للسينما، تقدم فيها الأفلام العربية والعالمية، خاصة الهندية منها، بمختلف مستوياتها ودرجاتها الفنية والجمالية والتجارية.

ولم يقتصر مسرح إسبانيول على تقديم الفرجات المسرحية والسينمائية فحسب، بل كانت تقدم فيه عروض موسيقية وغنائية وفكاهية من فينة إلى أخرى. ومن أهم المسرحيات التي عرضت في مسرح إسبانيول مسرحية (*انتصار الحق بالباطل*) لمؤلفها عبد الخالق الطريس، وقد قدمتها فرقة من تلاميذ المعهد الحر بتطوان. كما

(10) - مصطفى عبد السلام المهماه: نفسه، ص:69.

(11) - إدواردو مالدونادو: (مسرح تطوان)، ص: 109-111.

قدمت مسرحية (يد الشر) لفرقة الواحة للتمثيل، والمسرحية للأستاذ محمد الدحروش تأليفا وإخراجا، وقد عرضت المسرحية يوم الخميس 07 غشت 1952م...

هذا، وتظل مدينة تطوان المدينة الوحيدة في المنطقة الخليفية التي استفادت من المسرح بناية وحضارة وتمثيلا وثقافة وفكرا. في حين، بقيت منطقة الريف خارج هذه الاستفادة الفعالة؛ لأنها كانت في حالة حرب ومقاومة ونضال ضد إسبانيا؛ مما أثر ذلك سلبا على تنميتها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والفنية.

المســـرح في مدينـــة طنجـــة

ازدهر المسرح الإسباني في مدينة طنجة منذ سنة 1897م، سيما أن طنجة كانت منطقة دولية لم تخضع للحماية الأجنبية. وينضاف إلى هذا، أن طنجة كانت مدينة الجاليات الأجنبية، وقد أقيمت فيها جمعيات ثقافية وفنية ورياضية هدفها التعليم والتثقيف والتسلية والترفيه. وفي هذه الفترة بالذات، شهدت طنجة مجموعة من العروض الفنية والمسرحية، وبعض المنشآت المسرحية، نذكر منها:

❶ مسرح السارويلا (Zarzuela)

شيد الإسبانيون، بما فيهم أنطونيو غايگو (Antonio Gallego)، وأخته رامونا (Ramona)، وأخوه خوسي (Jose)، أول مسرح بمدينة طنجة: كان يدعى (معهد رفايل كالبو/Rafael Calvo)، وقد قدمت في هذا المسرح عروض كل من: دون بدرو ديل كادو (Don Pedro Del Gado)، وكارمين كوبينا (Carmen Cobena)، وإزابيل برو (Isabel Bru). وفيما بعد، اشتراه السيد ديغور روميرو، وأطلق عليه اسم مسرح السارسويلا (Zarzuela). بيد أنه سرعان ما توقف نشاطه الفني. ومنذ تشييده، وهو يشهد عروضا مختلفة من جانب الفرق الإقليمية والزائرة.

❷ مسرح الكازارا (Al cazara)

شيد مسرح الكازارا (Al cazara) في مدينة طنجة، في شهر أبريل 1913م، بمواد الخشب، وأدخلت عليه إصلاحات جوهرية إلى أن أصبح مكانا صالحا لتقديم

الفرجات والعروض المسرحية. وقد عرضت، في هذا المكان الفني، مسرحية (*حاشية فرعون*) من قبل فرقة أنطونيو باسو (Antonio Paso). وقد لقيت المسرحية نجاحا منقطع النظير طوال مدة العرض.

❸ مسرح التيبولي (Tivoli)

بني مسرح التيبولي (Tivoli) بشارع إسبانيا، في مدينة طنجة، "وقد شيد كذلك من الخشب. بناه السيد روكي ليونيس، وشهد عدة عروض مسرحية وسيمفونية من أعمال بتهوفن. وكان هذا المسرح يستهوي الكثيرين من رواده، إلا أنه في شهر أكتوبر 1917. أي: قبل انتهاء الحرب العالمية الأولى بقليل، أصبح في ملك جمعية الصداقة الفرنسية التي خصصته للعروض السينمائية، وهذا يدل على أن الإسبانيين استحوذوا قبل غيرهم على فن المسرح في هذه المدينة، وقد أطلق الفرنسيون على هذا المسرح اسم (La Bombonera)، وبعد تدشينه بأيام قليلة، التهمته النيران، وجاء أهل المدينة ليشاهدوا المسرح وهو يحترق، وفيما بعد أقيم على أطلاله مقهى عربي.[(12)]"

ويعني هذا أن هذا المسرح قد قام بدور هام في تنشيط الحركة المسرحية بالمدينة، وقد استفاد منها الأجانب والمسلمون على حد سواء.

❹ مسرح سيريفانطيس (Cervantes)

عرفت طنجة مسرحا كبيرا في المغرب وشمال أفريقيا، وهو مسرح سرفانطيس الذي تم تشييده في 02 أبريل 1911م من قبل مانويل بينيا (Manueì Peňa) وزوجته دونيا إسبيرانسا (Doňa Esperanza)، وقد كلف بناؤه أكثر من نصف مليون بسيطة، وشرع في تقديم فرجاته الفنية والمسرحية والغنائية في سنة 1913م.

و"لكي يكون المسرح في مستوى المسارح العالمية، تعاقد السينيور بينيا (Peňa) مع أشهر شركة للبناء في إسبانيا والمغرب، وهي شركة (أوخينيو ريبيرا وشركاه) التي كان يرأسها السنيور كوميديو الذي أسس فيما بعد شركة اللوكوس بالعرائش. كما وقع

(12) -عبد القادر السميحي: *نشأة المسرح والرياضة في المغرب*، مكتبة المعارف، الرباط، المغرب، الطبعة الأولى سنة 1986م، ص:24.

اختياره على المهندس البارع - وقتئذ - السنيور دييغو خيمينيس الذي تولى الإشراف الفني والهندسي. ولتزيين القاعة والسقف، استجلب الرسام الإسباني الشهير فديريكو ريبيرا، شقيق صاحب شركة البناء المكلفة بتشييد المسرح....

وقع اختيار موقع إقامة مسرح سرفانطيس فوق البقعة الأرضية التي كان يملكها السينيور بينيا، والتي كانت تمتد من البولفار حتى شارع صلاح الدين الأيوبي (حاليا). أما مواد البناء الحديدية والإسمنتية، فقد تم استجلابها من إسبانيا بواسطة الباخرة بيلاكو التي كانت وقتئذ تربط الخط البحري بين طنجة وقادس والجزيرة الخضراء.

والمسرح في شكله الهندسي هو عبارة عن بناية كلاسيكية لا يقل عن سواه من المسارح المماثلة في إسبانيا وأوروبا، إطاره بيضاوي الشكل، يضم 1.500 مقعد، بتلقائية تتحول إلى بساط خشبي للرقص الجماعي والكلاسيكي، و300 كرسي إسفنجي (فوتويات)، وشرفات متعددة، ومقاعد خلفية احتياطية للجمهور المتوسط الدخل.

أما الديكور الداخلي والخارجي للمسرح، فهو آية في الروعة والإتقان، فيه الإسباني، وفيه الإيطالي، فاللوحات المرسومة على الجدران هي عبارة عن نوع من المبرد (الفريسكو) المستعمل حسب التقاليد الفنية التي وضعتها المدرسة الإيطالية في عهد النهضة. وهذا ما جعلها تحافظ على ألوانها على الرغم من السنين... والإهمال.

أما الرواق الخارجي للمسرح، فكان من رسم الفنان العبقري آنذاك بوساطو. وهذا ما جعل السنيور بينيا (Peña) يؤدي للرسامين والنحاتين، ضعف ما دفعه كثمن لبناء المسرح. ومما زاد من لمعان المسرح، تزيينه بواسطة المرآة الضخمة التي صنعتها شركة لافينيانا بسرقسطة. أما الخشبة، فكانت تحتوي على 39 ديكورا وثلاثة ستائر من النوع النادر..."(13)

وقد عرضت، في هذا المسرح، مجموعة من الأعمال الفنية والموسيقية والمسرحية، سواء أكانت عالمية أم عربية، منها فرقة الإيطالي إيميليو جيوفاني، والفرق المسرحية العربية والمغربية، مثل: فرقة يوسف وهبي، وفرقة فاطمة رشدي،

(13)- عبد القادر السميحي: *نشأة المسرح والرياضة في المغرب*، صص: 42-43.

ومسرحيات (صلاح الدين الأيوبي)، و(مجنون ليلى)، و(موسى بن نصير)، و(الرشيد والبرامكة)، و(كليلة ودمنة) ...

وبعد استقلال المغرب، فوتت إسبانيا هذا المسرح إلى المجلس البلدي لمدينة طنجة من أجل الإشراف عليه تدبيرا وتسييرا وتتبعا. بيد أن معالم هذا المسرح قد ضاعت بسبب الإهمال والتقاعس والتسيب والتماطل البيروقراطي.

◄ المسرح في مدينة أصيلة

عرف شمال المغرب، في عهد الإسبان، منذ 1918م، تشييد مجموعة من المسارح لخدمة الجالية الإسبانية ترفيها وتسلية وتثقيفا، مع تعريف الساكنة المحلية بفن المسرح بصفة عامة، والمسرح الإسباني بصفة خاصة. ومن بين هذه المسارح التي نشطت فيها الحركة المسرحية مسرح إسبانيا بمدينة أصيلة التي عرضت فيه عدة مسرحيات أجنبية ومسرحيات عربية ومغربية.

◄ المسرح في مدينة العرائش

أسست بمدينة العرائش مسارح متنوعة إبان فترة الحماية الإسبانية، منها : مسرح كوليزيو (Colisio)، ومسرح إسبانيا (Españа). وقد عرضت، في هذين المسرحين، مجموعة من المسرحيات الأجنبية والعربية، مثل: مسرحية *(كلنا ظالم ومظلوم)* التي قدمتها فرقة الهلال التطوانية على خشبة مسرح إسبانيا بتاريخ 06 مارس سنة 1953م، وهي مسرحية مغربية اجتماعية من إخراج محمد النشناش. كما قدمت فرقة الواحة للتمثيل مسرحيتها *(الأب النادم)* للجمهور العرائشي تسلية وترفيها وتنويرا.

◄ المسرح في مدينة القصر الكبير

عرفت مدينة القصر الكبير بدورها مسرحا في فترة التواجد المحتل الإسباني، وهو مسرح بيري كالدوس (Perez Caldos)، وكان يستقبل الجالية الإسبانية، كما كان يستقبل الساكنة المحلية. وقد قام هذا المسرح بدور هام في تنشيط الحركة الفنية والأدبية والمسرحية في هذه المدينة المحتلة آنذاك.

☚ المسرح في مدينة الحسيمة

عرفت مدينة الحسيمة بدورها مسارح فنية على غرار مدن المنطقة الخليفية الأخرى، وكانت مخصصة للجالية الإسبانية، سيما العسكرية منها، للترفيه والتسلية والتثقيف. وفي هذا الصدد، يقول المفتوحي أحمد بوقرب في كتابه (*منطقة الحسيمة عبر التاريخ*): "وأول سينما بني فيها هو سينما (فخارنو) الذي كان يشتغل كسينما صيفية، ثم بعد ذلك المسرح الإسباني (تياترو إسبانيول) الذيَ كان يتسع لأكثر من 1000 شخص بطبقة واحدة هي (Butacas) و(Galliniras) في الطابق العلوي المحتوي على كراس خشبية من الألواح الغليظة والطويلة، وكان يستعمل كذلك كمكان للملاكمة والحفلات. وبعد ذلك، أصبح المسرح الإسباني يستعمل أيام السبت والأحد للجنود فقط، خصوصا بعد أن أصبح غير صالح للاستعمال، بعد أن تشقق سقفه المكون من القصدير الإسمنتي، فأصبحت الأمطار تتسرب إليه من كل مكان، كما أنشئ (تياترو) الأندلس الذي بنى قبالة ساحة أفريقيا، وكان أصغر من المسرح الأول."[14]

ويعني هذا أن مدينة الحسيمة قد استفادت من المنشآت المسرحية مثل المدن الشمالية الأخرى.

☚ المسرح في مدينة الناظور

لم تعرف مدينة الناظور، على حد علمي، منشآت مسرحية كباقي مدن المنطقة الخليفية (الحسيمة، وتطوان، وطنجة، والعرائش، وأصيلا، والقصر الكبير)، بل يمكن الحديث عن قاعة متعددة الاختصاصات، تسمى بـ (كاسا بيسكا / Casa Pesca) أو نادي الصيادين، كان يتجمع فيها المسرحيون، وتعرض فيها الأعمال الدرامية والفنية والمسرحية. وثمة قاعات سينمائية أخرى كانت تعرض فيها المسرحيات الأجنبية، مثل: قاعة سينما فيكتوريا (Victoria)، وسينما سلوان،...

(14) - المفتوحي أحمد بوقرب: *منطقة الحسيمة عبر التاريخ*، مطبعة الخليج العربي، تطوان، المغرب، الطبعة الأولى 2013م، ص: 188-189.

- مسرح إسبانيول في مدينة الدار البيضاء

شيدت إسبانيا في المغرب مسرحا في مدينة الدار البيضاء، يسمى بمسرح إسبانيول، وذلك في 06 غشت 1934م، وكان المسؤول عنه جيرمينال كاسادو (Germinal Casado)، الذي كان مديرا للمسرح ومخرجا وسينوغرافيا وكوريغرافيا. وفي هذا الصدد، يقول مصطفى المهماه: "لقد كانت فترة 1913 من أهم الفترات التي نشط فيها المسرح بالمغرب، ليس في بناء مسرح سرفانطيس بمدينة طنجة فقط، بل عمل الإسبان على بناء مجموعة من المسارح في المدن الشمالية الأخرى، ابتداء من سنة 1918، مسرح إسبانيا بأصيلة والعرائش والقصر الكبير، ومسرح الإسبانيول بالدار البيضاء الذي بناه خلال فترة احتلاله لها، وتجدر الإشارة إلى أنه وقع تطور في إعادة بناء القاعات، لقد كانت في أول أمرها من خشب فقط، ثم أعيد بناؤها على شكل المسارح التقليدية الكلاسيكية."(15)

ويعني هذا أن المنطقة الفرنسية قد استفادت بدورها من المسارح الإسبانية كمسرح إسبانيا بالدار البيضاء.

الخاتمـــة

وخلاصة القول، يتبين لنا، مما سبق ذكره، بأن إسبانيا خدمت المغرب في مجال فن المسرح أكثر مما خدمته فرنسا. والدليل على ذلك ما شيدته من قاعات مسرحية في مدن الشمال ومدينة الدار البيضاء. وبالتالي، فقد ساهمت في تنشيط الحركة المسرحية المغربية تأليفا وإخراجا وتمثيلا وتأثيثا. كما تعلّم المسرحيون المغاربة الكثير الكثير من التقنيات المسرحية بفضل احتكاكهم الفني والثقافي بالأطر الأجنبية، سيما الإسبانية منها. كما شعر المبدعون والمسرحيون المغاربة بالحرية الفنية أكثر في المنطقة الشمالية مما شعروا بها في المنطقة الفرنسية.

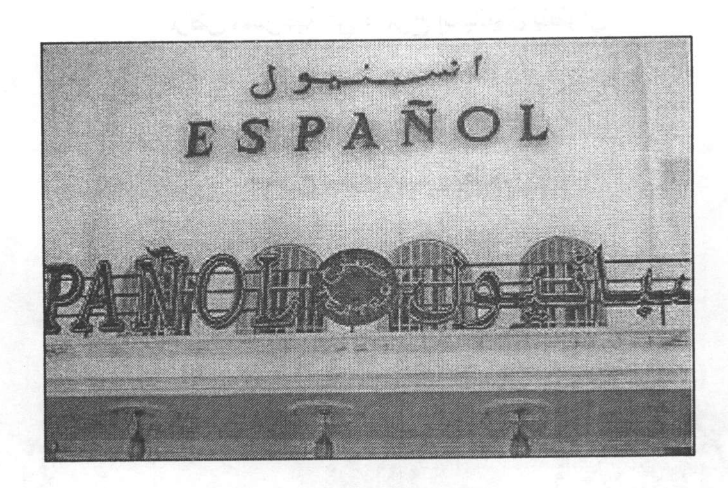
وعلى الرغم من هذه المركبات والمنشآت المسرحية، فقد كان المسرحيون المغاربة يعرضون أعمالهم الدرامية في الفنادق، والمقاهي، والأسواق، والمواسم،

(15) - مصطفى المهماه: نفسه، ص:72.

والساحات العمومية، والمدارس والمعاهد والثانويات؛ وذلك راجع إلى غلاء القاعات المسرحية الأجنبية من جهة، ومنع المستعمر لكل الأنشطة الفنية والثقافية التي تشم فيها رائحة التحدي والمقاومة والنضال من جهة أخرى. وفي هذا السياق، يقول مصطفى بغداد، في كتابه *(المسرح المغربي قبل الاستقلال)*: "وبالرغم من وجود هذه المسارح، فقد كان المسرحيون يضطرون إلى عرض مسرحياتهم في الدور أو الساحات العمومية أو الحدائق أو مسارح في الهواء الطلق، لأن الترخيص لهم بعرض مسرحياتهم في المسارح المعروفة كالمسرح البلدي بالبيضاء أو سرفانطيس بطنجة أو المسرح البلدي بالجديدة كان أمرا صعبا، ولذلك كان المسرحيون (يعتمدون على القاعات السينمائية وعلى مسارح الهواء الطلق مثل مسرح المدينة الرومانية المغربية (فولبيليس) وليلي، ومسرح العراء القائم الآن بمكناس، وعلى الساحات العمومية والمآثر التاريخية كلما كانت وقائع المسرحية ملائمة لذلك". [16]

ويعني هذا أن المسارح الأوروبية كانت مقتصرة، في عمومها، على الجاليات الأجنبية، سيما العسكرية منها، تسلية وترفيها وتثقيفا.أما الوطنيون المغاربة فقد اختاروا الفضاءات المفتوحة أو الفضاءات المغلقة المتوارية عن أنظار المراقبة العسكرية، خاصة إذا كانت العروض المسرحية ذات مقاصد وطنية وقومية، وذات أهداف نضالية وعسكرية وجهادية .

(16)- مصطفى بغداد: *المسرح المغربي قبل الاستقلال*، دار القرويين، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى سنة 2000م، ص:58.



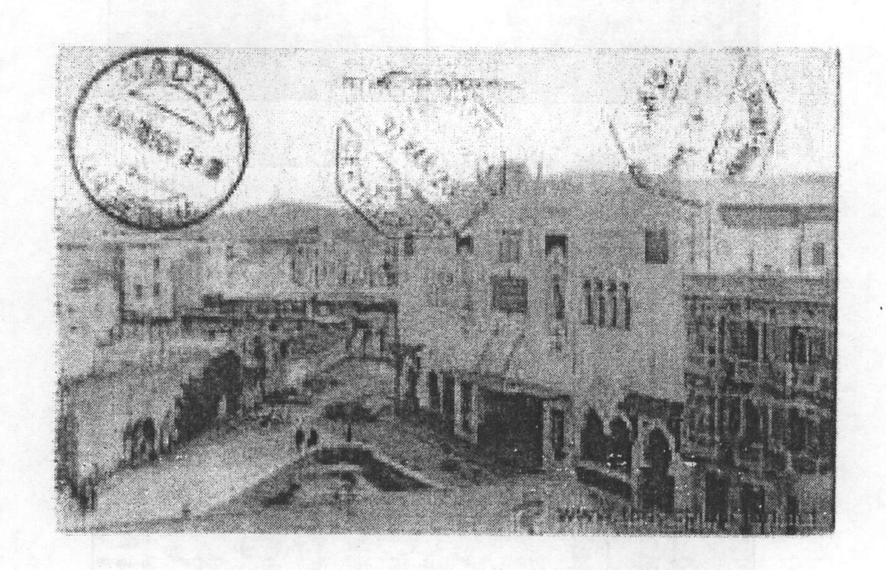
صورة قديمة لمسرح إسبانيول بمدينة تطوان

مسرح إسبانيول



عرض مسرحية في مسرح إسبانيول بتطوان

مسرح سيريفانتيس بطنجة



مسرح سيرفانتيس بطنجة (1913)

تطوان في القرن التاسع عشر الميلادي

كاسا بيسكا قاعة مسرحية متعددة الاختصاصات بالناظور

